الطوطمية في روايات إبراهيم الكونـي:

حيوان الودّان أنموذجا

أ.د. شريف بموسى عبد القادر
أ.أمل رشيد
جامعة تلمسان (الجزائر)

الملخص:

تتميّز روايات الروائي الليبي إبراهيم الكوني بمجموعة من الخصائص الفريدة جعلتها تختلف اختلافا كبيرا عن مثيلاتها من الروايات العربية الأخرى. ولعلّ أوّل خاصية هي موضوع الصحراء الّذي يكاد يكون الموضوع الوحيد في نصوصه متناولا علاقة الصحراوي بمكونات الصحراء من مخلوقات ونبات وجماد والتي تصل في بعض الأحيان إلى درجة التقديس مقترنة بأساطير وطقوس تمتّ إلى عقيدة دينية موغلة في القدم هي الطوطمية.

من هنا، تسعى هذه الدراسة إلى إماطة اللّثام عن إحدى أهمّ خصوصيات أدب إبراهيم الكوني، وهي الجانب الطوطمي في أعماله؛ حيث يقدّم لنا الروائي الليبي عالما صحراويا يكاد يكون أسطوريا تصل فيه العلاقة بين الإنسان والحيوان، في بعض الأحيان، إلى أعلى درجات التناغم والاحترام، ليصبح الحيوان محلّ تقديس وتبجيل من طرف الإنسان الصحراوي. تصل هذه القداسة والتبجيل إلى درجة أن يتبوّأ الحيوان مكانة الطوطم المقدّس في القبيلة الصحراوية، يمارس شعائره وقوانينه عليها منذ عهود قديمة.

مجال البحث : الرواية المغاربية

الكلمات المفتاحية : إبراهيم الكوني – الطوطمية – رواية مغاربية – الودان

Résumé :

Les Romans du libyen Ibrahim Al-Koni comprennent une collection de caractéristiques uniques qui les ont rendu sensiblement different de celles des autres romans arabes.

La première propriété est que le thème du Sahara est presque la seule rubrique dans ses textes abordant la relationentre Le saharien et les composants du désert saharien : Créatures, plantes et choses s'élevant parfois au point de révérence associée aux mythes et rites; appartenant à une religion trés ancienne : C' est le totémisme.

Par conséquent, cette étude cherche à découvrir une des caractéristiques les plus importantes de la littérature d'Al-Koni: c'est l'aspect totémique dans ses oeuvres où Le romancier libyen nous présente un monde saharien quasi mythique, dans lequel la relation entre l'homme et l'animal peut atteindre, parfois, les plus haut degrés d'harmonie et de respect.Et dont l'animal devient unlieu de vénération par le saharien.

Cette sainteté et veneration peuvent atteindre un point oùl'animal prend la place du totem sacré de la tribu saharienne, et pratique sa propr religion et sa loissur la tribu depuis des ciecles .

Motsclés : Ibrahim Al-Koni –Totémisme–RomanMaghrében-alwaddan

مقدمة :

استطاعت الرواية المغاربية المكتوبة بالعربية الوقوف على قدميها في فترة وجيزة، مؤكّدة وعيها وحضورها ونضجها الفنّي، بل وفتحت آفاقا جديدة وغير مسبوقة في تناولها لموضوعات عذراء ضمن بيئة ومناخ مختلفين عن مثيليهما في المشرق.

يُضاف إلى ذلك، خصوصيات الرواية المغاربية من حيث الأسلوب والمواضيع، ما جعلها تتبوّأ مكانة مميّزة في الأدب العربي المعاصر، بل والأدب العالمي. ولا أدلّ على ذلك، المكانة المرموقة الّتي يحتلّها بعض الروائيين

المغاربيين ضمن الرواية العالمية، حيث صنّفت المجلّة الأدبية الفرنسية المشهورة (LIRE) الروائي الليبي إبراهيم الكوني ضمن خمسين(**50**) روائيا عالميا يمثّلون أدب القرن الواحد والعشرين.

وتتميّز روايات الليبي إبراهيم الكوني بمجموعة من الخصائص الفريدة جعلتها تختلف اختلافا كبيرا عن مثيلاتها من الروايات العربية الأخرى. ولعلّ أوّل خاصية هي موضوع الصحراء الّذي يكاد يكون الموضوع الوحيد في نصوصه متناولا علاقة الصحراوي بمكونات الصحراء من مخلوقات ونبات وجماد والتي تصل في بعض الأحيان إلى درجة التقديس مقترنة بأساطير وطقوس تمتّ إلى عقيدة دينية موغلة في القدم هي الطوطمية. وإذا عدنا إلى روايات إبراهيم الكوني، وجدنا بأنّ " الإله الصحراوي يقترن رمزيا بعدد من الحيوانات، يأتي في مقدمتها: الثور الوحشي والودان، وبسلالة الزواحف تتصدّرها الأفعى والضب واليربوع والورل والقنفذ والأرنب"[1].

من هنا تسعى هذه الدراسة إلى البحث عن تجليات الطوطمية في روايات إبراهيم الكوني، متّخذة الودان أنموذجا، وفي الوقت ذاته تحاول الإجابة على التساؤل الآتي: هل كان الروائي إبراهيم الكوني وفيّا للأساطير الصحراوية والمعتقدات الطوطمية في كتاباته، أم لا؟.

وقبل أن نبدأ التحليل، يجب علينا أولا أن نعرّف الطوطمية الّتي ستكون موضوع دراستنا هذه.

الطوطمية [*]: Le totémisme "عقيدة دينية بدائية انتشرت قديما بين قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية"[2] حيث جعلت هذه القبائل بعض الحيوانات (الطوطم[**]: Le totem) في منزلة الآلهة معتقدة بأنها منحدرة منها. وقد دخلت كمصطلح في اللغة الإنجليزية سنة ألف وسبعمائة وإحدى وتسعين على يد "الأستاذ جي لانج J. Lang الّذي كان يقوم بوظيفة الترجمان بين البيض والهنود الحمر في أمريكا الشمالية"[3].

ويراد بها كذلك: " كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة، بحيث يعتقد كلّ فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين وأحد منها يسميه طوتمه"[4]. والطوطم قد يكون حيوانا أو نباتا، يدافع عن صاحبه ويبعث إليه الأحلام الجميلة، وصاحبه يحترمه ويقدسه. فإذا كان حيوانا، لا يقدم على قتله، أو نباتا فلا يقطعه. وأخيرا تعني الطوطمية: "عبادة الأسلاف من غير البشر"[5].

بناء على ما تقدم، نستطيع القول بأنّ الطوطم هو ذلك الحيوان – أو النبات –الّذي تتّخذه القبيلة أبا أو جدّا لها، معتقدة بأنّها من سلالته، بل وقد تُسمّى باسمه، وتقدسه أيّما تقديس.

وصاحب الطوطم هو الّذي لا يؤذي طوطمه ويقدسه، لا يأكله إلا عند الضرورة. وإذا مات احتفل بدفنه وحزن عليه. كما يعتقد بأنّه إن هو أهانه أو أساء إليه، أصابته المصائب والنكبات.

أما الطوطم، فينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه، برموز أو إشارات، بل ويلعب دور المخلّص في أوقات الشدة، كما " يبعث إلى صاحبه بأجمل الأحلام. من أجل ذلك حُرِّم هتك الحيوان أو لمسه"[6].

لقد عرّف إبراهيم الكوني الودّان قائلا: "الودان أو المولفون، أقدم حيوان في الصحراء الكبرى. وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر"[7].

وحسب الصفات الّتي قدّم بها هذا الحيوان في أعماله، يعتقد سعيد الغانمي، في كتابه الموسوم بـ "ملحمة الحدود القصوى : المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني"، بأنّ الودان ما هو إلا الثور الّذي ذكره امرئ القيس في معلقته حين قال:

"فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ   دِرَاكاً فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ"[8]

يقول: " يبدو لنا أنّ المشابهة بين الثور الوحشي والودان تاريخيا ووظيفيا وشكليا، تشجعنا على اعتبار الثور حيوان المولفون أو الودان الّذي انقرض في صحراء العرب منذ وقت مبكر، ولم يترك سوى هذه التسمية اليتيمة "[9].

أما الباحث هنري لوت Henri Lot، فقد اعتبر الودان من الحيوانات المقدسة عند أهل الصحراء، إذ يعبّر عن ذلك بقوله : " يلوح أنّ المولفون كان يلعب دورا مهما في معتقدات سكان الصحراء القدماء، فاللوحات الّتي تمثل هذا الوحش تملأ جدران الكهوف...ورجل الطوارق الّذي ينطلق لصيد الموفلون، فإنّه لا يخبر أحدا حتى لا يجلب النحس لنفسه. ويضع بعض الصيادين أحجارا على رؤوسهم وينطلقون قافزين، مرددين بعض العبارات السحرية الغامضة "[10].

وتقديس الودان ليس مقتصرا على أهل الصحراء فقط، بل " غالبا ما كان أمون[***] ينحت بجسم إنسان ورأس كبش ذي قرنين أفقيين في الآثار المصرية، وعلى جوانب القبور"[11]، وكباقي الآلهة المصرية، كان يهتم بعالم الأموات كما في عالم الأحياء، وكان رأسه ذو القرون ينحت على القبور كرمز للخلود.

لقد آثرنا في هذه الدراسة أن نقف عند بعض مظاهر الطوطمية وتجلياتها في روايات إبراهيم الكوني من خلال نماذج لعلّها من أكثر النماذج حضورا في أعماله وهذه المظاهر هي:

الودان الأب المهيب، الودان المقدس، الودان المخلّص.

1- الودان الأب المهيب: القبيلة الطوطمية لا تقدّس الطوطم إلاّ إذا كانت تعتقد بوجود علاقة بينها وبين هذا الطوطم. وهذه العلاقة غالبا ما تكون علاقة أبوة. فهل هذا الفهم سائد في أعمال الكوني؟

من خلال استقراءنا لمجموعة من كتابات إبراهيم الكوني، تبيّن لنا تردد هذا المظهر الطوطمي في كثير من هذه الكتابات؛ ففي رواية السحرة[12]، في الأسطورة الّتي تتحدّث عن الصراع بين الشمس والقمر، حينما عجز أهل الصحراء عن إرضاء الجلاد (الشمس) بالذبائح والقرابين، وتوسّلوا إليه بالدعاء فلم يرحم، بل تمادى في غيّه وكأنّ تلك القرابين قد زادته نهما، بحيث " تيبّست غابات الرتم واكتأبت أدغال الطلح، وماتت الحياة في أحراش النبات..." [13]، اقترح أحد العرافين أن يكون القربان – بدل الأنعام والدواب– "رأس الجد المقدس: الودان"[14]، لأنّ القربان لا يكون قربانا، إذا لم تكن التضحية بأعلى درجات القداسة.

اقتنع أغلب القوم، واجتمعت الحشود لتبدأ الحملة: حملة صيد الودان. إلاّ أنّ الزعيم قد رفض إعطاء الإشارة، لأنّه " لن يقبل بنحر الجد استعطافا للجلاد"[15]، وأبى أن يشارك في هذه المذبحة حتى لو استمرت الشمس في حرق الأخضر واليابس، الشجر والحجر، لكنّه حذرهم من الذهاب في هذه المغامرة، لأنّ: " الحكمة الخفية تقول: إنّ من يبدأ بنحر الجد المقدس، فسوف لن يتوقف حتى يجد نفسه في المنتهى ينحر أولاده وبناته"[16]، أي أنّ اللعنة ستلحقه مدى الحياة.

وفي قصة "الشبح" من رواية " بر الخيعتور" [17]، عندما يقرر إيمري النزول إلى المراعي بحثا عن إبل شاردة، تطول غيبته ويعيش مغامرة عجيبة.

استيقظ في أحد الأيام مبكرا، تناول حربته، وخرج للصيد. وبالرغم من تعدد أنواع الطرائد، اختار الودان، لأنّه " طريدة تحمل في جسمها لحما، هو دواء ولذة وتميمة. لذة المذاق، وترياق الأوجاع، وتميمة لتحريمٍ أقّره الأسلاف الّذين عرفوا في الودّان سلالة الجد."[18]، وغاب عنه أنّ الودان هو " الحيوان الّذي أجمعت القبائل أنّه كان جدّ كلّ إنسان في الصحراء"[19].

اختار طريدة، اقترب أكثر فأكثر، سدّد، حبس الأنفاس، استنفر البدن ثم " رمى، أو قبل أن يرمي، أو في الومضة الفاصلة بين وجْد الشرر وحركة الساعد، التفّ حول صدره الأفعوان، فسحق الساعدين وضمّهما إلى صدره بقسوة جنونية"[20]. أغمي عليه وفقد وعيه، وعندما استيقظ وجد نفسه ملقى على فراش وضيع: " بين يدي الرعاة، حكيم المراعي ينحني فوق رأسه"[21].

بعد عودته، حين حدّث الحكيم بمغامرته، قال له: "هل نسيت أنّ الأسلاف يرون الودان قديما جدّا"[22]، ثم أكد له بأنّ " أبوّة الودان لأهل الصحراء ليست أسطورة من الأساطير "[23].

وفي "المرثيات" من رواية " المجوس" [24]، يمضي – على امرأة – عام كامل بعد اقترانها ولا تحبل. تلجأ إلـى السحرة والعرافين طالبة الأحجبة والتمائم لعلّها تفي بالغرض " لكنّ الطلب لا يتحقق"[25]. تتردّد بعد ذلك على العرّافات وتستنجد بالمراهم والأدوية، لكن دون جدوى.

بعد يأس وخيبة أمل، تضطر إلى زيارة " إدبني"[26]. تنام على القبور وتستنجد بالأسلاف، فيشير عليها بالالتجاء إلى الودان المقدس في صخرة " متخندوش"[27]. قصدت الصخرة حيث الودان الجليل وسألته أن يهبها ابنا ذكرا: ناحت عند حافر الودان وتوسلت أن يرحمها ببذرة البقاء، ويهبها الذرية "[28]، ونذرت – إن هو لبّى النداء– أن تـذبح ناقـة. استمر الحال، وتضاعف النذر، حتى وجدت نفسها " قد نذرت له سبع نوق"[29]. في إحـدى الليـالي، زارهـا رسـول الأسلاف في المنام، وقال لها: " إنّ الودان لا يريد النوق، ولكنه سيهب الولد إن نذرته له"[30].

قبلت العرض. وعندما جاء الولد سمته " أوداد " تيمّنا بالودان العظيم واستعطافا له. شـبّ الفتـى وترعـرع، ونسيت الأم النذر. عاش متنقلا بين القمم، ينزل من جبل ويتعلّق بجيد جبل آخر. ينام في الكهوف ويستكشـف وصـايا الأسلاف في جدران الصلد.

لكنه عندما بدأ يغيب في المراعي، وتطول مدة غيابه، فهمت الأم الإشارة، وأدركت بأنّ " الـودان الأب أراد أن ينبئها بقرب الميعاد"[31] حاولت أن تتحدّى الودان باعتماد تعاويذ الفقهاء، وتمائم السحرة، وتسترجعه من القمـم، لكنهـا عندما عجزت، اقتنعت بأنّ " قبول الأمر الواقع أهون من الفقد، أهون من استفزاز الودان الأب ودفعه للغضب"[32].

من خلال استعراضنا لهذه النماذج عن علاقة الودان بالصحراوي، يمكننا أن نخرج بمجموعة من الملاحظات:

الأولى هي أنّ الودان غالبا ما كان يُنعت بالأب أو الجد. والثانية أنّه قُدِّم كحيوان مهيب مقدس، تقدم له القرابين، ويُرجى عند الأوقات الحرجة وأثناء الشدائد. أما الملاحظة الأخيرة، فهي عندما تتطور الأحـداث، غالبـا مـا تكـون لصالحه: هو المنتصر وهو صاحب الكلمة الأخيرة.

لقد ألهم الزعيم بإبطال الحملة الّتي كانت ستُشن ضده وفتن " إيمري" الصياد بالأفعوان في لحظـة القـنص أو الرمي، وفي الأنموذج الأخير أرغم والدة " أوداد " حتى تتنازل عن ابنها لصالحه.

هذه الملاحظات الّتي ذكرناها، هي في الحقيقة من أهمّ مزايا الطوطمية في أعمال إبراهيم الكوني، لأنّ الطوطم – كما بيّنا سابقا – أب مقدس حام مهيب منتقم ومخلّص.

2– الودان المقدّس: لعلّ السبب الّذي دفع أتباع الطوطم إلى تقديسه، هو اعتقادهم بأنّ لهم علاقة بهذا الأب الحيـواني، بل إنّ هذا التقديس قد يتطوّر ويتحوّل إلى عبادة. ومن أسباب التقديس أيضا، أنّ أهل الطوطم " يعتقدون بأنّ من أهـان الطوطم أو أساء إليه، يُصاب بالمصائب والنكبات، ومن أكل طوطمه يجازى بالموت: بأن يقيم الطوطم في بدنـه، ولا يزال يأكل منه حتى يموت"[33].

والتقديس لا يقتصر على احترام الطوطم أو تحريم أكله أو إيذائه لأنّ " البعض يحرّم لمسه والنظر إليـه. وقـد يحرّمون التلفظ باسمه، وإذا اضطروا إلى ذكره، عمدوا إلى الكناية أو الإشارة"[34].

أمّا عن مظاهر التقديس، فإنّ الطوطم حينما يموت، يعامل كما يعامل البشر: يحزن عليه أهله، ويحتفلون بدفنه، بل قد يُكفَّن ويُحمل إلى المدفن. ومن مظاهر التقديس كذلك، أن تسمّى القبيلة باسم الطوطم. وفي حالة المرض: " يداوي أصحاب الطب المريضَ بتصوير صورة طوتمه، أو يحاكون صوته أو عمله حينما يعالجونه"[35].

من خلال هذه المظاهر، يحقّ لنا أن نتساءل : هل تسود مثل هذه المزايا التقديسية في أعمال إبراهيم الكوني؟

قد تكون خير صورة تعبر عن قداسة الودان، ذلك المشهد الّذي نجده في رواية " نزيف الحجر"[36] في مقدمة القصة: عندما خرج " أسوف " لتأدية صلاته في مواجهة الصخرة المقدسة في وادي متخندوش بعدما ضايقته التيوس.

إنّها صخرة عظيمة " زُيّنت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى كلّها، على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق يخفي وجهه بذلك القناع الغامض، ويلامس بيده اليمنى الودان الّذي يقف بجواره مهيبا، عنيدا. يرفع رأسه مثله مثل الكاهن نحو الأفق البعيد، حيث تشرق الشمس وتكسب أشعتها في وجهيهما كلّ يوم"[37].

لم ينتبه " أسوف" لقيمة هذه الصخرة، بالرغم من أنّه كان يمرّ أمامها يوميا، لم يكن يعلم بأنّ هذا الكاهن المنحوت على الصخر وبجانبه الودان المقدس، يحتلاّن كلّ هذه المنزلة...حتى جاء اليوم الّذي رأى فيه " امرأة أوروبية تركع أمام الصخرة على ركبتيها، وتتمتم بكلام مبهم. عرف بالحدس أنّه صلوات النصارى"[38]، لقد أدرك يومها بأنّ المكان مقدس، إذ كلّ مكان تمارس فيه الشعائر والطقوس مقدس.

يومئذ تذكر لماذا كان أبوه دائما يمنعه من صيد الودان، تذكر – كذلك- اليوم الّذي أحرجه فيه، واضطر أبوه أن يعطيه بندقيته: "عندما صوّب أسوف سعل الأب بشدة، فأجفل الودان، وانطلقت الشياه، واحتمت بصخور الجبل المجاور"[39]، كما لم ينس اليوم الّذي حدّثه فيه عن كلّ أنواع الحيوانات المعروفة، وعندما سأله عن الودان قال: " الودان شيء آخر، أنا أخاف الودان"[40].

حاول أسوف أن يجمع بين هذه الصور كلها: صورة الودان المهيب على الصخرة المقدسة بقرب الكاهن العظيم، والتي يعود تاريخها إلى آلاف السنين، وصورة المرأة الأوروبية وهي ساجدة أمام الصخرة تمارس طقوسا غريبة، وأخيرا دفاع أبيه المستميت عن الودان وخوفه منه، انتهى إلى أنّ هذا الحيوان إذا كان قد استطاع أن يفرض هيبته على الأجيال المتعاقبة داخل الصحراء وخارجها، فلا شك أنّه لم يقدّس هكذا عبثا وإنما لأنّه يستحق التقديس. وتقديس الحيوان من مزايا الطوطمية.

3- الودان المخلّص: تنتشر فكرة الاعتقاد بالمنقذ أو المخلّص في كثير من الأديان والمعتقدات لدى الشعوب. كما نجد لها جذورا في المنجز الأسطوري الّذي أبدعته المخيلة البشرية، لأنّ الأساطير "جعلت فكرة الخلاص مرتكزا لمعتقداتها وطقوسها حين تحوّل إله الخصب فيها إلى مخلّص للبشر من عالم المادة الفاني، إلى عالم الروح الباقي"[41]، وربما لهذا السبب وجدنا لكلّ أمة إله خصبها. فإله الخصب عند البابليين تموز، وعند الفرس والهنود إندرا، وعند الفينيقيين أدونيس وبعل عند الساميين.

والمخلّص مهما كان اسمه، في الديانات أو المذاهب، منوط بمهمة واحدة هي: " ملء الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، أو إقامة فردوس أرضي لا موقع فيه للظلم أو الاستغلال أو الاستبداد"[42].

هذا المفهوم نجد ما يشبهه في المذهب الطوطمي، فالطوطم يدافع عن قبيلته ويحمي أهله، وينذر أصحابه قبل وقوع الخطر...بعلامة أو إشارة أو حركة. إنه – بعبارة أخرى- يخلّصهم من الخطر المهدد أو المحتمل، مثلا : " إذا طار البوم أمام قبيلة البومة وقت خروجهم إلى الحرب تفاءلوا به، وإذا طار وراءهم تشاءموا منه ورجعوا من حيث أتوا "[43]. ومن هنا يمكننا طرح التساؤل التالي:

هل يسود مثل هذا الفهم لفكرة المخلّص في أعمال إبراهيم الكوني؟

في قصة الرّهان من رواية المجوس [44]، يقع كلٌّ من " أوداد" و" أوخا " فريسة في حب الأميرة " تينيري" ابنة أخ السلطان " أناي".

وعندما يشتد التنافس بين العاشقين، يقترح الإمام رهانا بين الخصمين لفك النزاع: وهو أن يتسلق كلا العاشقين جبال أكالوس والاتصال بقمة إيدينان، والفائز ينال الأميرة.

"الإمام راهن أوخا بالنوق والثياب"[45] إن هو قبل الرهان، لكن أوخا قدّر مواهب أوداد وتجنّب المبـــاراة. أمـــا أوداد، فاتصل به آخماد صديق أوخا، وعرض عليه هذا العرض قائلا: " إذا استطعت أن تتسلق إيدينان وتقف على رأس اللوح العمودي؟ تنازل لك عن الأميرة"[46].

عندما سمعت والدة أوداد عن الرهان، حاولت منع ابنها، لأنه " لم يحدث أن وصل مخلوق إلى اللوح المنصوب، واستطاع أن ينزل إلى الأرض من جديد"[47]، أما أوداد فقد كان مصمما: " إذا لم أصعد فلن أكون جديرا بها "[48].

بدأ أوداد رحلته متسلقا، إلى أن وصل إلى إديبني (مقبرة الأسلاف)، وقف عندها كثيرا: متعجبا من تلك الجماجم والعظام كيف أصبحت مرتعا للعقارب والحيات. ثم تابع صعوده، إلى أن وصل إلى صخرة بارزة، تعلق بنتـــوء بهـــا، وجلس ليستريح قليلا. في تلك اللحظة تزلزلت الأرض تحت قدميه: " لم يجد ما يتعلّق به. كسر طرف الجلمـــود نتـــوء النجاة وتركه معلقا بين السماء والأرض"[49].

ظلّ متثبتا بالجدار، خُيِّل له أنّه ذهب في غفوة، عندما استيقظ ورفع رأسه، " التقت نظرته بالضـــيف المهيـــب، رأسه متوج بقرنين جليلين معقوفين إلى الوراء، كقرون التيوس"[50]، إنّه الودان: أخذ يحدق فيه بفضول مخلوق بشري.

أول سؤال تبادر إلى ذهنه حين رآه:

"من أنت؟

هل أنت هو المسكون؟ هل أنت الودان المحرم؟ قل لي بالسر

ماذا أردت أن تقول لي؟ هل أردت أن تُسرّ لي بشيء؟ هل أنت رسول؟"[51]

لكن الحيوان المهيب ظل واقفا، حفر الأرض بحافره، صعد إلى مسافة أبعد بقليل، ثم اختفى وراء الظلال.

تلك الأسئلة الّتي كانت تراود أوداد، كان عليه أن يجد لها أجوبة. صحيح لقد بلغ حدّا من الجبل لم يبلغه غيـــره، لكن عليه أو يواصل التسلق إن أراد أن يبلغ غايته.

وقف عند " فوهة صغيرة لأحد الكهوف، وجد نقشا بديعا لرأس ودان حجبته طبقة الصلصـــال. تنـــاول حجـــرا وشرع يصقل به الصلد"[52] زال الصلصال، اتّضحت الصورة: ودان مارد بقرنين معقوفين، تعجّب واحتار، لأنّ الودان المنقوش هو نفسه: " نفس الودان الخفي الّذي زاره بعد محنة الزلزلة "[53].

لم تقف دهشة أوداد عند هذا الحد، لأنّه تحت حافر الودان اكتشف رسوما كتبت بحروف التيفيناغ[54]، بعد فـــك الرموز وجد وصية الأسلاف: " قف واسمع: من نزل إلى أسفل يصعد، ومن صعد إلى فوق ينزل"[55].

لم يفهم معنى الوصية، وتاه في التأويلات. لم يجد تفسيرا: لماذا نحتت هذه العبارة عند حافر الودان، وتســـاءل: "ماذا أرادوا أن يخبروا على لسان الجد الحكيم، الودان الأزلي المحرم"[56]، لأنّه كان يعلم بأنّ " الأسلاف لم يخلفوا أثرا واحدا بلا هدف، لم يدونوا على الحجارة رمزا واحدا بدون نبوءة "[57].

أعاد التفكير في العبارة المنحوتة مستنجدا بما تعلمه من الرعاة في قراءة الأبجدية المشفرة، وانتهى إلى أنّ أصل العبارة هو: "من نزل إلى أسفل لم يصعد، ومن صعد إلى فوق لم ينزل"[58].

استمر في الصعود، وازدادت صعوبة التسلق. استنفر كل العضلات...انتابه شعور لذيذ، غريب لم يعشـــه مـــن قبل. كان يزيد عمقا كلما كان يقترب من القمة...في هذا الجو المليء بالمتعة وجد نفسه يردد " تينيري أيـــن أنـــت يـــا تينيري"[59].

بذكر المرأة، تخلّى عنه الحجر، " تخلّى عنه الحجر السماوي ورماه في الجب ممسكا بقطعـــة الصلصـــال"[60]. انفصل عن الصومعة السماوية وتدحرج إلى أسفل...استسلم ببدنه حتى وجد نفسه متثبتا بنتوء صلب " فتح عينه، حـــدّق في العتمة...كان يتدلّى ممسكا بقرني الودان المعقوفين المكابرين"[61]، جره الأب الخالد، ازداد ألمه، لكنّه أبعـــده عـــن الخطر. لقد خلّصه من الهلاك.

بعد أن خلّصه الودان المقدس من سقطة كادت أن تكون سببا في هلاكه، استرجع أوداد الموقف، وتساءل لماذا تخلّى عنه الحجر.

لقد أدرك السر وعرف السبب، لأنه مزج بين المقدس والمدنس: ذكر المرأة (رمز المدنس) وهو على أرض الآلهة (رمز المقدس).

كان عليه أن لا يذكر اسم الأنثى عندما كان يعانق بجسده الحجر، لأنّ الأنثى مذمومة، ورمز لكلّ ما هو مدنّس. والأنثى مذمومة، لا لكونها أنثى، وإنما لتوثيقها الروابط بكل ما هو أرضي وشيطاني.

لقد قضت الشعائر بدفعه إلى السقوط، لأنّه أحلّ الأرضي في مجال السماوي، وعلى الإنسان إذا اختار مذهب الحلول في الطبيعة، أن لا يفكر في الإنسان الآخر أو يشركه بها ولو في الحلم.

خلاصة : إذا كانت رواية المدينة الحديثة تنطلق أو تستمد مقومات وجودها من الواقع، فإنّ نصوص الصحراء تستمد مرجعياتها من الأسطورة بالدرجة الأولى. ومن هنا إذا كان مركز العالم التخييلي في رواية المدينة هو الإنسان، فإنّه ليس كذلك في رواية الصحراء: حيث إنّ كلّ كائن حي، نبات أو حيوان، بل حتى الجماد، قد يحتلّ هذا المركز.

عندما اعتمد إبراهيم الكوني الطوطمية في رواياته، لم يكن يقصد الطوطم كعقيدة وطقوس، أي لم يكن هدفه منصبا على الطوطمية العقائدية أو الاجتماعية، وإنما كان هدفه الطوطم في حد ذاته، أي الحيوان بما يحمله من أبعاد ورموز في الفضاء الصحراوي، الفضاء الثابت اللارمزي السرمدي الروحي. لأنّنا نستطيع من خلال أسطورة ما، أن ندمج إلى المجتمع الإنساني حيوانات مقدسة، فتصبح جزءا من نمط حياته اليومية، وتنشأ بين العالمين: عالم الإنسان وعالم الحيوان علاقة قوية، وبهذا يتحول الإنسان إلى شريك في حياة الكون كباقي المخلوقات الأخرى، وليس سيّدا فيه.

كلّ هذا، لأنّ الصحراء مهددة في تراثها ومقدساتها، في طقوسها ولهجاتها، في سحرها وشعوذتها...من قبل غزو وفضاء جديد ومعاصر.

لقد احتكّ العالم الإفريقي بالغرب، وأصبح يعيش أزمة حضارية جعلته يشّكك في ثقافته ومعتقداته، في تصوراته وقيمه العتيقة الّتي ورثها من الأجداد، الشيء الّذي كان له بالغ الأثر على البيئة الإيكولوجية الّتي أصبحت تمثل مصدرا للمال فقط. ربما نحو هذه الغاية يسعى أدب إبراهيم الكوني : الحفاظ على مقوّمات الصحراء.

المراجع المعتمدة في هذه الدراسة:

---

(1) – سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى : المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000 ، ص 47.

(*) – الطوطمية Le totémisme: نظام ديني عند الشعوب البدائية، لاسيما أستراليا وإفريقيا، يجعل العشيرة منبعثة من نبات أو حيوان وهو الأغلب فيكون لحمه محرما على أفرادها.

(2) – محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2005، ص 69.

(**) – الطوطم Le Totem: مشتقة من كلمة هندية الأصل تعني علامة الدم بين الأخ وأخته، ثم أطلقت في الغالب على الحيوان الّذي تنحدر منه العشيرة، ويعتبر لحمه محرما.

(3) – محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 69.

(4) – المرجع نفسه، ص 69.

(5) – أورينت ستار، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ترجمة: حسن نعمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، د.ط، 1994، ص 52.

(6) – المرجع نفسه، ص 53.

(7) – إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، منشورات الشهاب، الجزائر، د.ط، 2012، ص 08.

(8) – ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 2004، ص 120.

(9) – سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى: المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، ص 106.

(10) – هنري لوت، لوحات تاسيلي، ترجمة: أنيس زكي حسن، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ط، 1976، ص 154.

(***) الإله: أمون– رع إله الشمس عند الفراعنة.

(11) – فيليب سيرنج، الرموز في الفن، الأديان، الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر، ط1، 1992، ص 67.

(12) – إبراهيم الكوني، السحرة، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط3، 2007.

(13) – المصدر نفسه، ص 381.

(14) – المصدر نفسه، ص 382.
(15) – المصدر نفسه، ص 383.
(16) – المصدر نفسه، ص 383.
(17) – إبراهيم الكوني، بر الخيعتور، دار الكتب الوطنية – بنغازي، ط3، 2007، ص 115.
(18) – المصدر نفسه، ص 122.
(19) – المصدر نفسه، ص 122.
(20) – المصدر نفسه، ص 122.
(21) – المصدر نفسه، ص 125.
(22) – المصدر نفسه، ص 127.
(23) – المصدر نفسه، ص 128.
(24) – إبراهيم الكوني، المجوس، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط5، 2007، ص 609.
(25) – المصدر نفسه، ص 611.
(26) – إدبني: أضرحة الصحراء الكبرى، ذات الشكل الهندسي البيضوي أو المستدير.
(27) – متخدونش: اسم الوادي حيث توجد الصخرة المقدسة.
(28) – المصدر نفسه، ص 612.
(29) – المصدر نفسه، ص 612.
(30) – المصدر نفسه، ص 612.
(31) – المصدر نفسه، ص 613.
(32) – المصدر نفسه، ص 614.
(33) – محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 71.
(34) – المصدر نفسه، ص 71.
(35) – المصدر نفسه، ص 72.
(36) – إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، منشورات الشهاب، الجزائر، دط، 2012.
(37) – المصدر نفسه، ص 08.
(38) – المصدر نفسه، ص 09.
(39) – المصدر نفسه، ص 45.
(40) – المصدر نفسه، ص 51.
(41) – عبد الحليم مخالفة، تجليات الأسطورة في أشعار نزار قباني السياسية، منشورات السائحي، الجزائر، ط1، 2012، ص 70.
(42) – نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة ط1، 2010، ص 190.
(43) – الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 72.
(44) – إبراهيم الكوني، المجوس، ص 533.
(45) – المصدر نفسه، ص 540.
(46) – المصدر نفسه، ص 539.
(47) – المصدر نفسه، ص 547.
(48) – المصدر نفسه، ص 540.
(49) – المصدر نفسه، ص 553.
(50) – المصدر نفسه، ص 554.
(51) – المصدر نفسه، ص 555.
(52) – المصدر نفسه، ص 556.
(53) – المصدر نفسه، ص 557.
(54) – التيفيناغ: أبجدية الطوارق.
(55) – إبراهيم الكوني، المجوس، ص 557.
(56) – المصدر نفسه، ص 557-558.
(57) – المصدر نفسه، ص 558.
(58) – المصدر نفسه، ص 558.
(59) – المصدر نفسه، ص 559.
(60) – المصدر نفسه، ص 559.
(61) – المصدر نفسه، ص 560.